نَقدُ الْفكرِ الدّينيّ عِنْدَ سبينوزَا

Spinoza's Critique of Religious Thought"

م. د. عقيل عبد الله عزيز

الجامعة المستنصرية/ كلّيّة الآداب/ مجلة آداب

Asst. Inst. Aqeel Abdullah Azeez

College of Arts, Mustansiriya Journal of Arts, Mustansiriya University

Akeelsad1991@uomustansiriyah.edu.iq

الملخص

يتضح من خلال ذلك أنّ مشروع سبينوزا النقدي لم يكن موجهًا ضد الدّين في جوهره، بل ضد القراءات اللاهوتية التي قيدت حرية العقل وحولت النصوص المقدّسة إلى أدوات للهيمنة السياسية والاجتماعية. لقد أكد سبينوزا على أولوية العقل باعتباره الوسيلة الوحيدة لبلوغ الحقيقة، وعدّ أن الوحي يقتصر على توجيه أخلاقي موجه لعامة الناس. من هنا يمكن القول إن سبينوزا أسهم في تأسيس تصور جديد للدين داخل الحداثة الفلسفية، إذ يصبح الدين محررًا للعقل لا مقيدًا له، ومجالًا لتعزيز القيم الإنسانية لا لتعميق الصراعات.

كلمات مفتاحية: النبوة– المعجزات– القانون الإلهي–التقوى – الإيمان

Abstract

Essentially Spinoza's critical project was not directed against religion as such, but rather against theological interpretations that curtailed the freedom of reason and

turned sacred texts into instruments of political and social domination. He maintained the primacy of reason as the sole means of attaining truth, while assigning to revelation a merely moral function addressed to the general populace. In this respect, Spinoza can be seen as contributing to the formation of a new conception of religion within philosophical modernity—one in which religion functions as a medium for the emancipation of reason rather than its constraint, and as a domain for the cultivation of human values rather than the exacerbation of conflict.

Key Words: Prophecy, Miracles, Piet, Divine Law, Belief

المقدمة

يحتلّ باروخ سبينوزا موقعًا محوريًا في تاريخ الفلسفة الحديثة، إذ يُنظر إليه باعتباره أحد الروّاد الذين مهدوا الطريق للانتقال من الفكر اللاهوتي الوسيط إلى العقلانية الحديثة. وقد شكّل نقده للفكر الديني، كما تجلّى على نحو خاص في رسالة في اللاهوت والسياسة، أحد أبرز المفاصل التي أسهمت في بلورة رؤية جديدة لعلاقة الإنسان بالمقدس وبالسلطة على حد سواء. فسبينوزا لا يقف عند حدود مساءلة العقائد السائدة، وإنما يباشر مشروعًا فلسفيًا يسعى إلى تحرير الدين من البعد الأسطوري والخرافي، وإخضاعه لمعيار العقل الطبيعي الذي يضمن له بقاءه في صورته الأصيلة كمنظومة أخلاقية تستهدف ترسيخ العدل والمحبة.

نجد إن قضيَّة نقد الفكر الدِّيني شغلت الكثير من الفلاسفة والمفكرين في الفكر الغربي إِلَّا أَنَّ ما نجده عند سبينوزا (1632م – 1677م) كان أوسع وأشمل في عمليَّة النقد وتوسعه في القضايا الدِّينيَّة، حيث قام سبينوزا بنقد جميع الأديان الكتابيَّة سواء كانت يهوديَّة أَو نصرانيَّة أَو إسلاميَّة* بدون استثناء، وركز بصورة مباشرة على الديانة اليهوديَّة لأَنَّه يهوديًا، إذ رأى أَنَّ اليهود ليس شعب الله المختار، وهي المرتكز الأساسي في الديانة اليهوديَّة.

* هذا الإسلام الَّذي كان يقصده سبينوزا، هو إسلام الدولة العثمانية، وعلق حسن حنفي على ذلك، إن الأتراك أعطوا صورة سيئة لأَنْفسهم وللدين باستعمارهم لشبه جزيرة البلقان وشرق أوروبا، وكانت صورتهم في أذهان الأوروبيين صورة المتعصب الجاهل الَّذي يسعى وراء اللذات الحسية والذي يقترب دينه من الوثنية. وأعطى سبينوزا ثلاث خصال لهم، أَوَّلًا: القضاء على حرية الفكر، واعتبار أي نظر صحيح في الدِّين كفرًا. ثانيًا: سيادة الأَحكام

تبنّى سبينوزا موقفًا نقديًا من العقائد الدينية، ولا سيما اليهودية والمسيحية، إذ رأى أن ما يمارسه رجال الدين والكنيسة باسم الدين يتعارض مع الجوهر الأصلي لتعاليم موسى وعيسى "عليهما السّلام". وقد عدّ أن الدين تحوّل إلى وسيلة لتحقيق مصالح السلطة الكنسية، الأمر الذي دفعه إلى رفضه بوصفه عائقًا أمام حرية الفكر. وانطلاقًا من هذا التصور، دعا سبينوزا إلى ضرورة الفصل بين الدين والدولة، باعتبار أن استقلال المجال السياسي والفكري عن الهيمنة الدينية شرط أساسي لضمان حرية التفكير.

لقد وقف الباحث من خلال هذا البحث على موضوعات عدة تخص الفكر الديني، ومن هذه الموضوعات كانت: القانون الإلهي، النبوة والمعجزات، الإيمان وعلاقة اللاهوت بالإيمان.

هدف البحث والفرضية الأساسية: يهدف البحث الى قراءة جديدة للفكر الديني عند سبينوزا.

حدود البحث ومنهجه: يتعلق هذا البحث حصرًا بالفكر الغربي الحديث ولاسيما رأي سبينوزا وقد اعتمدنا المنهج التحليلي.

تقسيم البحث: قسم هذا البحث إلى خمس فقرات: أولًا: القانون الإلهي، ثانيًا: النبوة والمعجزات، ثالثًا: الفلسفة واللّاهوت، رابعًا: قضية الإيمان، خامسًا: اللاهوت والإيمان.

أولًا: القانون الإلهي

القانون لا يقصد به أمرًا من الأوامر، يستطيع الناس تنفيذه أو إهماله، وإنه يحصر قدرة الإنسان في حدود معينة، تستطيع هذه القدرة أن تتعداها، لكنه لا يأمر بشيء يفوق قواها [1].

السابقة في فكرهم، ثم سيادة الخرافات والأوهام. ثالثًا: تحريم النظر العقلي حتى استحال عليه الشك في الموروث أَو أعمال العقل السليم. وهنا يشير سبينوزا إلى حال المسلمين في عصر الجهالة أبان الحكم العثماني. ينظر: سبينوزا: رسالة في اللّاهوت والسِّيَاسَة، ترجمة حسن حنفي، مراجعة فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، د. ط، 1971، ص119-120.

[1] ينظر: سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفي، مراجعة فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971، ص192.

ويعرف سبينوزا* القانون بأنه "قاعدة للحياة يفرضها الإنسان على نفسه أو على الآخرين من أجل غاية"[2]. *إن غاية القوانين الحقيقية تتضح لعدد قليل من الناس، لا يقدرون على ادراكها مع إن حياتهم تسير وفقًا للعقل، فقد وضع المشرعون بحكمة غاية مختلفة تمامًا عن الغاية التي تنشأ ضرورة عن طبيعة القوانين*[3]. فيرى سبينوزا إن المشرعين للقانون "يبشرون المدافعين عن القانون بما يفضله العامة على كل ما عداه، وينذرون من يمزقونه بما يرهبه العامة أكثر من غيره"[4]. *من خلال ذلك ينشأ التصور الشائع للقانون على إنه قاعدة للحياة فرضها بعض الناس على البعض الآخر، حتى يقال عن الذين يطيعون القانون أنهم يعيشون تحت سلطان القانون ويبدون عبيدًا له*[5].

---

* ولد باروخ سبينوزا (1632–1677) بأمستردام من أسرة يهودية برتغالية قد هربت من محاكم التفتيش البرتغالية. أراد أبواه أن ينشأ تنشئة دينية، فبعثاه إلى مدرسة حاخام مشهور يدعى مورتيرا، فتعلم على يديه اللغة العبرية وتلقن أصول التلمود. ثم التمس دراسة اللغة اللاتينية لدى طبيب يدعى فان دن إنده، والذي ساعده على اكتشاف فلاسفة القرون الوسطى، كان كثير المجادلة مع رجال الدين وسرعان ما انعتق من ربقة الكنيس اليهودي فخابت آمال الأحبار التي علقوها عليه طويلًا واضطرارهم إلى فصله من الطائفة اليهودية وحرمانه من الحقوق الدينية. ولم يكتفوا بذلك، إذ حرضوا قضاة المدينة على الحكم عليه بحظر الإقامة فيها، فلجأ الى احدى ضواحي أمستردام، بعدما لقيه من محاولة اغتيال من طرف بعض المتعصبين كان يلقب بالقديس المدني، وكانت وفاته في مدينة لاهاي الفرنسية. أبرز مؤلفاته: (في مبادئ فلسفة ديكارت (1663م)، رسالة في اللاهوت والسياسة (1670م)، رسالة في اصلاح العقل، علم الاخلاق، رسالة في النحو العبري، البحث السياسي). غنار سكيربك ونلز غليجي: تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديم الى القرن العشرين، ترجمة حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، ط1 2012، ص435. سبينوزا، باروخ: علم الاخلاق، ترجمة جلال الدين سعيد، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2009، ص7–8. كرم، يوسف: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، مصر، 1957، ص103. زكريا، فؤاد: اسبينوزا، دار التنوير للطباعة والنشر، ط2، 1983، ص31–33.

[2] سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص192.

[3] ينظر: سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص193.

[4] سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص193.

[5] ينظر: سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص193.

ويقسم سبينوزا القانون إلى قانون إنساني وقانون إلهي، ويعرف القانون الإنساني بأنه "قاعدة للحياة مهمتها الوحيدة هي المحافظة على سلامة الحياة والدولة"[6]. ويعرف القانون الإلهي بأنه "قاعدة لا تهدف إلا للخير الأقصى، أي إلى المعرفة الحقة وإلى حب الله"[7].

إذا أردنا حقيقة البحث عما هو نافع، فيجب الارتقاء بذهننا بقدر الإمكان (الذهن افضل ما في وجودنا)، لأن الخير الأقصى يتحقق في هذا الارتقاء. وأن المعرفة واليقين الذي يقضي على كل شك يتوقف على معرفة الله وحدها، لأن الشيء لا يمكن أن يوجد أو يتصور بدون الله، وفي الإمكان أن نشك في كل شيء طالما ليست لدينا فكرة واضحة عن الله[8]. من خلال ذلك ينتج "أن خيرنا الأقصى وكمالنا يعتمدان على معرفة الله وحدها ... فلما كان يستحيل وجود شيء أو تصوره بدون الله، فمن المؤكد أن كل موجودات الطبيعة تحتوي على فكرة الله وتعبر عنها حسب درجتها في الماهية والكمال"[9].

إذن فكلما زادت معرفتنا بالأشياء في الطبيعة كانت المعرفة التي نحصل عليها بالله أعظم وأكمل، ولا تعتمد كل معرفتنا على معرفة الله فحسب بل تنحصر فيها كلية، ويكون خيرنا الأقصى وسعادتنا في معرفة الله وحبه[10]. فالجوهر الواحد عند سبينوزا هو الله وهو بذلك نقطة ارتكاز لبناء فلسفته[11].

فيقول سبينوزا: "لما كان حب الله هو سعادة الإنسان القصوى ونعيمه والغاية الأخيرة لجميع الأفعال الإنسانية وهدفها، فإن ذلك الذي يجعل همه حب الله لا خوفًا من عذابه، ولا طمعًا في شيء آخر كاللذات أو الشهوة بل لمجرد كونه يعرف الله، أي لأنه يعلم أن الخير الأقصى في معرفة الله وحبه ذلك وحده هو الذي يتبع

---

[6] سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص193.

[7] سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص193.

[8] ينظر: سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص194.

[9] سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص194.

[10] ينظر: سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص194.

[11] ينظر: السراي، حسون، همسه عبد الوهاب عبد اللطيف، مجلة الفلسفة، العدد26 ،2022، ص،145.

القانون الإلهي"[12]. *إذن، القانون الإلهي يتلخص في قضية واحدة هي حب الله باعتباره خيرًا أقصى، وأن معرفة الله وحبه هي الغاية القصوى التي ينبغي أن تتجه إليها جميع أفعالنا* [13].

يلاحظ سبينوزا عدة نقاط في طبيعة القانون الإلهي:

1. إنه شامل، أي أنه يعم الناس جميعًا.
2. إنه لا يتطلب أن نصدق بروايات تاريخية، أيًا كان مضمونها.
3. إنه لا يقتضي إقامة الشعائر والطقوس، أي الأفعال التي لا تعني شيئًا في ذاتها، وبعبارة أخرى لا يتطلب أفعالًا يتعدى تبريرها حدود الفهم الإنساني.
4. إنه يعطي أعظم جزاء وهو معرفة هذا القانون نفسه، أي معرفة الله وحبه باعتبارنا موجودات حرة حقًا، تتمتع بنفس صافية وثابتة، وأن العقاب يكون في حرماننا من هذه الخيرات ووقوعنا في عبودية الجسد، أي تكون أنفسنا متغيرة متقلبة[14].

لم يكن النمط التفكيري الهندسي حول الله والعالم تقليديا، وإنما حاول أن يضع نمطًا مخالفًا لما كان سائدًا في ذلك الوقت وحتى وقتنا الراهن[15].

ثانيًا: النبوة والمعجزات

أ: النبوة

يعرف سبينوزا النبوة أو الوحي: "هي المعرفة اليقينية التي يوحي بها الله إلى البشر عن شيء ما. والنبي هو مفسر ما يوحي الله به لأمثال من الناس الذين لا يقدرون على الحصول على المعرفة اليقينية به، ولا يملكون إلا إدراكه بالإيمان وحده"[16]. *أي أن النبوة تتطابق تمامًا مع المعرفة الفطرية لأن ما تعرفه بالنور الفطري يعتمد*

---

[12] سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص194-195.

[13] ينظر: سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص195.

[14] ينظر: سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص195-197.

[15] لطيف، سالي محسن: مجلة آداب المستنصرية، العدد103، المجلد47 ،2023، ص581.

[16] سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص123.

على معرفة الله وحدها وعلى أوامره الأزلية. ولما كانت هذه المعرفة مشتركة بين الناس لأنها تعتمد على مبادئ يعتنقها الجميع، فإنها لا تمثل أي أهمية للعامي الذي يولع بالنوادر والعجائب ويحتقر كل هبة فطرية ويعتقد أنه يستبعدها حين يتحدث عن المعرفة النبوية[17].

ويقول سبينوزا "ومع أن المعرفة الفطرية معرفة إلهية بمعنى الكلمة، فإننا لا يمكن أن نسمي من يقومون بنشرها أنبياء، إذ يستطيع كل فرد أن يدرك تعاليم المعرفة الفطرية ويفهمها بنفس اليقين دون الاعتماد على الإيمان وحده"[18]. *ولذلك لما كان ذهننا قادرا على تكوين بعض الأفكار التي توضح طبيعة الأشياء والتي توجهنا في الحياة العملية، فإن كل ما نعرفه بوضوح وتمييز تمليه علينا فكرة الله وطبيعته لا بالأقوال، ولكن بوسيلة أرفع من ذلك بكثير متفقة تمامًا مع طبيعة ذهننا* [19].

يتساءل سبينوزا: كيف يمكننا الحديث عما يتعدى حدود ذهننا دون الرجوع إلى ما نقله الأنبياء لنا شفاهة أو كتابة؟ لما كان ظهور الأنبياء في هذه الأيام قد انقطع فيكفي أن نفحص الكتب المقدسة التي تركها الأنبياء السابقون دون أن نتقول شيئًا يتعلق بهذا الموضوع أو ننسب إلى الأنبياء شيئًا لم يقولوه هم أنفسهم بوضوح تام. ويذكر هنا بأن اليهود لم يذكروا مطلقًا العلل الجزئية، بل أهملوها تمامًا مفوضين كل شيء إلى الله بدافع من ورعهم الديني، فمثلًا إذا حققوا ربحًا من بعض الأعمال يقولون: إن الله قد أعطاهم المال، وإذا رغبوا في شيء ما يقولون إن الله هيأ قلوبهم على نحو ما [20].

يذكر سبينوزا وحينما نتفحص الكتب المقدسة نجد أن الله قد أوحى إلى الأنبياء بالكلام أو بالمظاهر الحسية أو بالطريقتين معًا وفي بعض الأحيان يكون الكلام والمظهر الحسي حادثًا بالفعل، لم يتخيله النبي لحظة سماعه أو تخيله أو رؤيته، وأحيانًا أخرى يكون مجرد خيالات، بحيث تكون مخيلة النبي مهيئة حتى وهو في اليقظة، على نحو يجعله يتخيل أنه يسمع صوتًا أو يرى شيئا بوضوح. مثال ذلك أن الله قد أوحى إلى موسى الشرائع التي سنها للعبرانيين بصوت حقيقي. ويخبرنا سفر الخروج بذلك. فاجتمع بك هناك وأخاطبك من فوق

---

[17] ينظر: سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص123-124.

[18] سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص124-125.

[19] ينظر: سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص125.

[20] ينظر: سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص125-126.

الغشاء من بين الكروبين. هذا يدل على أن الله استخدم صوتًا حقيقيًا، بدليل أن موسى كلما أراد ان يتحدث الله إليه وجده مجيبًا لرغبته[21].

يقول سبينوزا: إني أجد نفسي ميالًا إلى اعتبار صوت الله الذي ينادي به صموئيل في الكتاب حقيقيًا لأننا نقرأ في صموئيل الآية الأخيرة (وعاد الرب يتراءى في شيلو لأن الرب تجلى لصموئيل في شيلو بكلمة الرب). يبدو أن النص يشير إلى حضور الله بكلمة أو بسماع صموئيل لله وهو يتكلم. فإننا مضطرون إلى أن نؤكد أن الصوت الذي سمعه صموئيل كان من صنع الخيال فضلًا عن أن الصوت كانت له نبرة صوت عالٍ الذي كان صموئيل يسمعه عادة، ثم كان يسهل عليه تخيله[22].

نستطيع أن نؤكد دون تردد أن الأنبياء لم يتلقوا وحيًا إلهيًا إلا بالاستعانة بالخيال، أي بوساطة كلمات أو صور تكون حقيقة مرة وخيالية مرة أخرى. ولما كان الأنبياء قد أدركوا الوحي الإلهي بالاستعانة بالخيال فلا شك أن الكثير من تعاليمهم قد تعدت حدود الذهن، لأننا بالكلمات والصور نستطيع أن نكون أفكارا تزيد عن تلك التي نكونها بالمبادئ والمفاهيم الذهنية، أي تقوم عليها معرفتنا الطبيعية[23].

وبناء على ذلك يتبين لنا السبب الذي جعل الأنبياء يدركون تعاليمهم ويعرضونها دائمًا بلغة الأمثال أو الألغاز، وجعلهم يعبرون عن الحقائق الروحية بلغة جسمية، فهذه الأساليب تتفق مع طبيعة الخيال. فلما كان الخيال مبهمًا ومثقلًا، لم تبق النبوة دائمًا ماثلة أمام الأنبياء، ولم تتكرر بالاستمرار، بل كانت نادرة للغاية.[24].

ب: المعجزات

يعرف سبينوزا المعجزات*: "إنها أعمال مناقضة لنظام الطبيعة – يستحيل أَنْ تكون وسيلة لإثبات وجود الله، بل أنها على عكس من ذلك تجعلنا نشك في وجوده على حين أننا نستطيع أَنْ نكون على يقين منه دون

---

[21] ينظر: سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص126-127.

[22] ينظر: سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص127.

[23] ينظر: سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص142-143.

[24] ينظر: سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص144.

* المعجزة Miracle كلفظة انجليزية مشتقة من اللفظة اللَّاتينية mirari الَّتي عادة ما يتم تناولها بمعنى الأَمر الخارق للعادة ، إذ تفهم بوصفها إيقاف النظام أَو توقف دورة الطبيعة، أي أنه حدث استثنائي لا يمكن أَنْ يتكئ

معجزات، أي عندما نعلم أن كل شيء في الطبيعة يتبع نظامًا ثابتًا لا يتغير"[25]. *هذا التعريف يفيد إلى معنيين: أنْ يكون للمعجزات علل طبيعيَّة، أو ألا تكون له علة سوى الله، والخلاصة أنَّ المعجزة سواء أكانت لها علل طبيعيَّة أم لم تكن، فهي عمل يتجاوز حدود الفهم الإنسَاني، لذلك لا نستطيع عن طريق المعجزة معرفة ماهيَّة الله أو وجوده أو أي شيء آخر يتعلق بالله والطبيعة*[26].

إن التصديق بالمعجزة يجعلنا نشك في كل شيء ويؤدي بنا إلى الإلحاد ومن ذلك نستطيع أنْ نستنتج مرة أخرى إنَّ أيَّة معجزة تناقض الطبيعة أو تتجاوز الطبيعة هي امتناع محض، ثم لا نستطيع تفسير المعجزة في الكتب المقدسة إلَّا بوصفها عملًا للطبيعة يتجاوز الفهم الإنسَاني أو نعتقد انه كذلك، وقد كانت معرفة الطريقة الَّتي يمكن به التوفيق بين نظام الطبيعة والحوادث الإنسَانيَّة وبين فكرة الأنبياء عن الله تمثل مشكلة عويصة حقًا. أمَّا الفلاسفة الذين يحاولون معرفة الأشياء لا بالمعجزات بل بأفكار واضحة، فقد كانوا دائمًا يجدون هذه المسألة واضحة للغاية، إذ إنَّ المعجزات لا تعطي معرفة صحيحة عن الله، ولا تدل بوضوح كافٍ عن العناية الإلهيَّة[27].

ويعطي سبينوزا بعض الملحوظات عن المعجزات، إذ يقول: نادرًا ما يروي الناس شيئًا كما حدث بسهولة، دون إقحام رأيهم الخاص فيه. وإذا أرادوا شيئًا جديدًا أو سمعوا به، فإن أذهانهم تنشغل بالآراء المسبقة إلى حد أنهم يدركون شيئًا مخالفًا كل الاختلاف لما رأوه أو تعلموه من الآخرين، نتيجة ذلك يروى الناس في أخبارهم وقصصهم الخاصة أكثر ممَّا يرون الحوادث الَّتي وقعت بالفعل، فتروي الحادثة الواحدة على شخصين مختلفي الآراء، بطريقتين مختلفتين كل الاختلاف، حتى ليبدو أنهما يتحدثان عن واقعتين مختلفتين. فإذَا أردنا تفسير معجزات

على سبب طبيعي أو على شيء ممَّا تنتجه الطبيعة، والمعجزة من أصل ملتبس: فأما أمَّا تقال للدل على مؤثر غير متعلق بقوانين عامة يعرفها البشر، أو بنحو أم يقال على مؤثر لا يتعلق بأي قانون معلوم أو مجهول، فإذَا أخذت لفظ معجزة بالمعنى الأوَّل، فقد يقع لك أكثر ممَّا تعتقد بكثير، ولكن قد يقع لك أقل ممَّا تعتقد بكثير لو أخذ بالمعنى الثاني. والمعجزة بالمعنى الإشتقاقي هي كل عمل مرموق وعجيب، لا يمكن إرجاعه إلى قوانين معروفة. ينظر: النشار، مصطفى: مدخل جديد إلى فلسفة الدِّين، الدار المصرية اللبنانية، ط2، 2015، ص245. ويقارن: لالاند، أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني، ترجمة خليل احمد خليل، منشورات عويدات، بيروت _ باريس، ط2، 2001، ص809.

[25] سبينوزا: رسالة في اللَّاهوت والسِّيَاسَة، ص226.

[26] ينظر: سبينوزا: رسالة في اللَّاهوت والسِّيَاسَة، ص226.

[27] ينظر: سبينوزا: رسالة في اللَّاهوت والسِّيَاسَة، ص227–229.

الكتاب فمن الضروري أَنْ نعرف آراء الرواة الأَوَّل، وأول من دون الرواية، ومعرفة أفكار الراوي، لكيلا نخلط بين الأشياء الَّتي حدثت بالفعل وبين الأشياء الخياليَّة الَّتي لم تكن إلا رؤى نبويَّة*[28]. في هذا الصدد يرى فؤاد زكريا أن سبينوزا يذهب إِلى أن عقلنا ذاته معجزة، وكفاحنا من أجل فهم الطبيعة والسيطرة عليها معجزة، ولا معنى في نظره لافتراض معجزات ونبوءات تتحدى العقل وتخرج عن نطاق الطبيعة من أجل إثبات هذه القدرة[29].*

فيما بعد ظهر عمانؤيل كانط الَّذي يتحدث لنا عن المعجزة بأنها صعبة الاستيعاب عقليا كونه مشلولا ولا يمكنه التبرير لكن يخرجها بالجانب الخلقي فيقول: لا نستطيع أبدًا أَنْ نأمل في الحصول على القانون الَّذي بحسبه حينئذ يسلك الله في القيام بهذه الحادثة ماعدا القانون الخلقي الكلي، القاضي بأن ما يفعله هو سيكون خيرًا كله[30].

يعرف هيوم المعجزة: "هي خرق لقوانين الطبيعة"[31]. *الذي يجري وفق مجرى الطبيعة المألوف لا يقال عنه أنه معجزة، فليست معجزة أَنْ يموت إِنسَان فجأة تظهر عليه صحة جيدة، لكن أَنْ يعود الميت إِلى الحياة تعد معجزة، لأَنَّ هذه الواقعة لم تشهد في أي عصر ولا في أي بلد[32].*

بالرغم من أَنَّ الخبرة هي المرشد الوحيد في التعليل حول الوقائع فلا بد من الاعتراف بأنها مرشد غير معصوم من الخطأ دائمًا، فإِنَّه قادر على إِيقاعنا في الأخطاء بعض الأحيان، فقد يكون الإِنسَان في إنجلترا على

---

* ان سبينوزا لديه موقف سلبي من الرواة، هذا الموقف يتكرر مع ديفيد هيوم.

[28] ينظر: سبينوزا: رسالة في اللَّاهوت والسِّيَاسَة، ص234-235.

[29] ينظر: زكريا، فؤاد: إسبينوزا، ص189.

[30] كانط، إِيمَانويل: الدِّين في حدود مجرد العقل، ترجمة فتحي المسكيني، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2012، ص152-153.

[31] هيوم، ديفيد: مبحث في الفاهمة البشرية، ترجمة موسى وهبة، دار الفارابي، ط1، 2008، ص158.

[32] ينظر: هيوم، ديفيد: مبحث في الفاهمة البشرية، ص158. كذلك ينظر: محمود، زكي نجيب: ديفد هيوم، دار المعارف، مصر، د ط، 1958 ص169.

حق إذا توقع أَنْ يكون الجو في أي يوم من أيام يونيو أحسن منه في أي يوم من أيام ديسمبر، لأَنَّ خبرته قد دلت على ذلك في سنيه الماضية[33].

أما أَنْ نصدق حكمًا دلت عليه خبراتنا باطراد لم نشهد له استثناء، وأما أَنْ نصدق خبرات غيرنا من السلف نقلها لنا الرواة على مر الزمن، فلا بد من الأَخذ بالبديل الأَوَّل دون البديل الثاني ما دمنا قد سلمنا بأن الخبرة هي أَساس الأَحكام كلها، والحجة الَّتي يستند إِليها القائلون بمعجزات المسيح الَّتي أيد بها صدق رسالته هي شهادة اتباعه الذين قالوا إنهم رأوا بأعينهم تلك المعجزات تحدث أَمام أبصارهم، إِذَن الأساس الَّذي نقيم عليه صدق الديانة المسيحيَّة أوهي من الأساس الَّذي نقيم عليه صدق ما تدلنا على صدقه حواسنا نحن، ذلك لأَنَّ من يقوم بالرؤية أَقرَب إِلى الصدق ممن تروي له رؤية سواه. فأتباع المسيح قد رأوا شيئًا ثُمَّ رووه، ثُمَّ أخذ الرواة على مر السنين يروي بعضهم لبعض حتى انتهت إِلينا نحن شهادة الشهود الأَوَّلين، فهي شهادة رؤية فعل فيها الزمن فعله، ولذلك فهي أضعف من شهادة حواسنا [34].

نستنتج من هذا كله، أَنَّ الإِيمَان بوقوع المعجزة عند هيوم هو إِيمَان لا يستند على أَساس ولعدة أَسبَاب منها: أَوَّلًا: ليس هنالك معجزة واحدة ممَّا يروي قد شهدها عدد كافٍ من الشهود الذين نطمئن إِلى رجاحة عقولهم وارتفاع منزلتهم من التَّربيَة العلميَّة ارتفاعًا يعصمهم من الوهم. ثانيًا: إن من طبيعة الإِنسَان نفسها ما يغريه بالاستماع إِلى ما يثير العجب والدهشة، فما أهون عليه أَنْ يستمع إِلى غريب الأَحدَاث ليشبع بها خياله. ثالثًا: إن حديث المعجزات يكثر بين الشعوب الجاهلة والمتأخرة وحتى إِذا وجدت شعبًا متحضرًا لا يزال يروي شيئًا عن هذه المعجزات، فستجده قد ورثها عن أسلافه أيام جهلهم وتأخرهم، وقد نقلها السلف إِلى الخلف بعدَ أَنْ أحاطها بشيء من الرهبة حتى لا يعبث بها عابث[35].

ثالثًا: الفلسفة واللَّاهوت

---

[33] ينظر: هيوم، ديفيد: مبحث في الفاهمة البشرية، ص153. كذلك ينظر: محمود، زكي نجيب: ديفد هيوم، ص167.

[34] ينظر: محمود، زكي نجيب: ديفد هيوم، ص166-169.

[35] ينظر: هيوم، ديفيد: مبحث في الفاهمة البشرية، ص160-164. كذلك ينظر: محمود، زكي نجيب: ديفد هيوم، ص170.

وضع سبينوزا في البحث اللَّاهوتي السياسي حدًا فاصلًا بين العقل والإيمَان، أَو بين الفلسفة واللَّاهوت، وأكد أن لِكُلّ منهما مجاله الخاص الَّذي لا يتعدى على مجال الآخر، وأن سبينوزا فصل بين مجالي العقل والوحي لكي يحفظ لِكُلّ منهما حقوقه إزاء الاخر، فلا توجد أي صلة تقارب بين الإيمَان واللَّاهوت من ناحية، وبين الفلسفة من ناحية أخرى. فغاية الفلسفة هي الحق وحده، وغاية الإيمَان هي الطاعة والتقوى وحدهما. ومن ناحية أخرى إنَّ الأُسُس الَّتي تقوم عليها الفلسفة هي الأفكار المشتركة، وهذه يجب أَنْ تستخلص من الطبيعة وحدها. أَمَّا الإيمَان فأسسه هي التَّأريخ وفقه اللُّغة، وهي أُسُس ينبغي أَنْ تستمد من الكتاب والوحي وحدهما، فالإيمَان إِذَن يكفل لِكُلّ فرد حريَّة مطلقة في أَنْ يتفلسف حتى يستطيع أَنْ يفكر كما يشاء في أي موضوع دون أَنْ يكون ذلك قد ارتكب جرمًا، وهو لا يدين إِلَّا من يدعون الناس إِلى العصيان والكراهيَّة والمنازعات والغضب، بوصفهم الخارجين عن الدِّين ودعاة الفتن. أَمَّا المؤمنون بحق فهم عنده أولئك الذين يدعون الناس من حولهم إِلى العدل والإحسان بقدر ما تسمح لهم عقولهم وقدراتهم[36].

وعليه نرى أن سبينوزا لا يؤمن بالمعجزات : فالأمر يتعلق في نظره بظواهر لم يقع تفسيرها (ولكن ذلك لا يعني كونها غير قابلة للتغيير)، أنتجتها قدرة الخيال ، والعقل البشريين ، ويلتفت سبينوزا إِلى مسالة المعجزات التفاتة خاصَّة الَّتي يذكر بوظيفتها الدلاليَّة (باعتبارها علامة)، ولكنه يرى من الخطأ تمامًا اعتبارها أفعالا إلهيَّة مناقضة للقوانين الطبيعيَّة ، سنضطر إِلى القبول أَيضًا بأَنَّه بفعل ضد طبيعته الخاصة ، والحال أنه ليس ثمة تناقض أكبر من ذلك، إنَّ الأَحدَاث الخارقة الَّتي تتحدث عنها الكتب المقدسة ، أَمَّا أنها لم تحدث ، ويجب قراءتها باعتبارها سرديات رمزيَّة، وأما أنها وقعت فعلا ، ولكن العقل البشري سيكون قادرا حتما يوما ما على تفسيرها [37].

إن عظمة الخالق عند سبينوزا ليست بحاجة إِلى معجزة حتى تثبت وجوده، فإن عظمته تكمن في تجاوز هذا المنطق، وما علينا سوى الاهتداء بها أخلاقيًا وعمليًا وتهذيب وتربية النفس والسلوك من دون الاقتناع بها عقليًا لأَنَّه خلاف الطبيعة، وهذا ما يراه الباحث.

رابعًا: قضية الإيمان

---

[36] ينظر: زكريا، فؤاد: إسبينوزا، ص183–184. ويقارن: سبينوزا: رسالة في اللَّاهوت والسِّيَاسَة، ص363.

[37] لونوار، فريدريك: المعجزة السبينوزية، ترجمة محمد عادل مطيمط، دار التنوير للنشر والتوزيع، د. ط، 2020، ص74–81.

يتساءل سبينوزا: ما الإيمان؟ وأي الناس هم المؤمنون؟ نجد أن سبينوزا يعرف الإيمان: "إن الإيمان هو أن ننسب إلى الله بالفكر خصائص يؤدي الجهل بها إلى ضياع الطاعة، على حين أن وجود الطاعة يستتبع وجود هذه الخصائص بالضرورة"[38]. *نتيجة ذلك يكون الإنسان المطيع حقًا هو صاحب الإيمان الحق، أي أن الإيمان يكون الخلاص له، إذ يقول: إذا وجدت وجد الإيمان، وهذا ما يقوله الحواري نفسه صراحة، فأرني إيمانك بغير الأعمال أما أنا فأريك إيماني بالأعمال، ومن هنا نستنتج مرة أخرى أنه لا يمكن الحكم على أحد بأنه مؤمن أو غير مؤمن إلا بأعماله، إذا كانت أفعاله حسنة، مع اختلاف في عقائده عن بقية المؤمنين، فهو مؤمن، وإذا كانت أفعاله سيئة واتفقت عقائده لفظيًا مع الآخرين، فهو غير مؤمن، ذلك أنّه إذا وجدت الطاعة وجد الإيمان بالضرورة. والإيمان دون الأعمال يعدّ ميّتا. وهذا ما يقوله يوحنا صراحة في الآية 12 من نفس الإصحاح وبهذا نعلم أننا نثبت فيه وهو فينا بأنه آتانا من روحه، أي المحبة، لأنّه قال قبل ذلك أن الله محبة، وهو يستنتج من ذلك أن روح الله تسكن في الإنسان حقيقة عندما يحب*[39].

خامسًا: اللاهوت والإيمان

لا توجد أي صلة تقارب بين الإيمان واللاهوت من ناحية، وبين الفلسفة من ناحية أخرى. فغاية الفلسفة هي الحق وحده، وغاية الإيمان هي الطاعة والتقوى وحدهما. ومن ناحية أخرى أن الأسس التي تقوم عليها الفلسفة هي الأفكار المشتركة، وهذه يجب أن تستخلص من الطبيعة وحدها. أما الإيمان فأسسه هي التاريخ وفقه اللغة، وهي أسس ينبغي أن تستمد من الكتاب والوحي وحدهما، فالإيمان إذن يكفل لكل فرد حرية مطلقة في أن يتفلسف حتى يستطيع أن يفكر كما يشاء في أي موضوع دون أن يكون ذلك قد ارتكب جرمًا، وهو لا يدين إلا من يدعون الناس إلى العصيان والكراهية والمنازعات والغضب، بوصفهم الخارجين عن الدين ودعاة الفتن. أما المؤمنون بحق فهم عنده أولئك الذين يدعون الناس من حولهم إلى العدل والإحسان بقدر ما تسمح لهم عقولهم وقدراتهم[40].

---

[38] سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص357.

[39] ينظر: سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص358.

[40] ينظر: سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص363.

الخاتمة

بعد تحليل فلسفة سبينوزا ومقارنتها ببعض الأطروحات الفلسفية الأخرى، يمكننا الخروج بجملة من النتائج الأساسية:

1. من خلال القانون الإلهي، قدّم سبينوزا نقدًا لاذعًا للروايات التّأريخية، وكذلك فرض الشعائر والطقوس التي فهمها الناس على أنها قوانين موجودة، غير أن هذه القوانين مصطنعة من قبل الإنسان ولا يمكن التصديق بها.
2. نجد أن سبينوزا ربط قضية النبوة بالمعرفة الفطرية، ومن يقوم بنشر هذه المعرفة هم ليسوا أنبياء، بل أناس عاديين يقومون بنشر هذه المعرفة ويعدونها معرفة إلهية، ثم نجده يربط قضية الأنبياء بالخيال، ثم أسقط فرضية الوحي أو عملية الواسطة بين الله والنبي.
3. فيما يخص نقده للمعجزات، وجه سبينوزا نقدًا كبيرًا للمعجزات على اعتبار أن التصديق بالمعجزات أمر منافٍ للعقل ومتجاوز للفهم الإنساني وللقوانين الطبيعية، وقد يؤدي بنا إلى الإلحاد.
4. قام سبينوزا بتمييز رائع، إذ ميز بين الفلسفة والإيمان بشكل سلس ودقيق، فاعتبر الفلسفة هي الحق وحدها، أما الإيمان فهو الطاعة والتقوى وحده.
5. يستند سبينوزا في نقده إلى منهج تأويلي عقلاني يجعل النصوص الدينية خاضعة لشروط الفهم التاريخي واللغوي، بما يحول دون استغلالها لأغراض سلطوية أو إقصائية. وبهذا المعنى، يتجاوز نقده للفكر الديني مجرد الطابع التفكيكي ليغدو تأسيسيًا، إذ يفتح أفقًا جديدًا لفهم الدين من منظور إنساني–عقلاني، ويرسم ملامح ما سيصبح لاحقًا أحد أعمدة الفكر التنويري وفلسفة التسامح والحرية الدينية.

قائمة المصادر

1. زكريا، فؤاد: اسبينوزا، دار التنوير للطباعة والنشر، ط2، 1983.
2. سبينوزا: رسالة في اللَّاهوت والسِّيَاسَة، ترجمة حسن حنفي، مراجعة فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، د. ط، 1971.
3. سبينوزا، باروخ: علم الأخلاق، ترجمة جلال الدين سعيد، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2009.

4. السراي، حسون، همسه عبد الوهاب عبد اللطيف، مجلة الفلسفة، العدد26 ،2022، ص،145.
5. غنار سكيربك ، و نلز غليجي: تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديم إلى القرن العشرين، ترجمة حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2012.
6. كانط، إيمَانويل: الدِّين في حدود مجرد العقل، ترجمة فتحي المسكيني، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2012.
7. كرم، يوسف: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، مصر، 1957، ص103.
8. لالاند، أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني، ترجمة خليل احمد خليل، منشورات عويدات، بيروت _ باريس، ط2، 2001.
9. لطيف، سالي محسن: مجلة آداب المستنصرية، العدد103، المجلد47 ،2023.
10. لونوار، فريدريك: المعجزة السبينوزية، ترجمة محمد عادل مطيمط، دار التنوير للنشر والتوزيع، د. ط، 2020.
11. م.د فينوس ميثم علي. (2022). *مماليك الخليفة الناصر لدين الله ودورهم السياسي والعسكري 623 – 577 هـ/ 1180 – 1225 م.* العراق: مجلة كلية التربية الاساسية العدد 116 مجلد 28.
12. محمود، زكي نجيب: ديفد هيوم، دار المعارف، مصر، د ط، 1958.
13. النشار، مصطفى: مدخل جديد إلى فلسفة الدِّين، الدار المصرية اللبنانية، ط2، 2015.
14. هيوم، ديفيد: مبحث في الفاهمة البشرية، ترجمة موسى وهبة، دار الفارابي، ط1، 2008.